الفصل الثاني

الخيال

في أدب الأطفال

الخيال في أدب الأطفال

(الصور المجازية)

يحاول هذا البحث تتبع أثر الخيال في أدب الأطفال خلال عدة محاور أولها : البحث في مفهوم الخيال للوصول إلى المحور الثاني ، وهو كيفية توظيف الخيال في مجال الأدب ، ثم المحور الثالث تحديد أنواع هذا الخيال بالنسبة لأدب الطفل ، ومناقشة نوع واحد وهو "الصور المجازية" من حيث الأسس النفسية لها ولتأثيرها في الطفل ، ثم تحليل نصين-أحدهما قصصي والآخر شعري ، لبيان أثر الخيال في تشكيل هذه الصور ، ومردود ذلك على تنمية شخصية الطفل بأبعادها المتعددة.

أولاً: مفهوم الخيال وأنواعه:

لقد تعددت مفهومات الخيال بناء على تصورات المفكرين ، فهناك من يعتبره مقابلا للواقع والحقيقة ، من ثم فهو أقرب لديه إلى الوهم والظن ، وربما كان ذلك من معاني الخيال اللغوية [١] ، وقد وجدنا بعض علماء النفس مثل جزل وجان بياجيه ، يصفون الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة بأنه لا يفرق بين الخيال والحقيقة ، وقد يجد صعوبة في التفزيق بينهما [٢] .

بينما هناك من يتجه به وجهة علمية معرفية اصطلاحية عندما يعرفه بأنه " التفكير بالصور ، على حسب طرق فنية تختلف من مذهب فني لمذهب فني آخر" [٣] ، وبذلك تتعدد هذه الطرق بين المذاهب الأدبية المختلفة من كلاسيكية إلى رومانسية وغيرها .

وهناك من المعاجم المتخصصة من يعرف الخيال بأنه "ملكة من ملكات العقل، بها تمثل أشياء غائبة كأنها ماثلة حقا لشعورنا ومشاعرنا" [٤] ، فهو وسيلة لاستحضار الماضي وذكرياته.

كما يجعله مرادفا "للمخيلة" عندما يقول : "مخيلة" هي الخيال ، أي الملكة المولدة للتصورات الحسية المادية الغائبة عن النظر ، وهى على نوعين : إما أن تستعيد الصور التي شاهدها صاحبها من قبل ، وتسمى عندئذ المخيلة المتذكرة أو المستعيدة ، أو تعتمد صورا سابقة فتولد منها صورا جديدة ، وتسمى عندئذ المخيلة الخلاقة:-

أ- المتذكرة أو المستعيدة: هي في واقعها تشبه الذاكرة التي تستحضر صور الأشياء ، غير أن الذاكرة هي أكثر سكونية وتمركز الأحداث في المكان والزمان ، وتحتفظ بها إلى وقت الحاجة ، في حين أن المخيلة المستعيدة

هي أكثر دينامية ،فتثير الصور محررة من التمركز في الإطارين المكاني والزمان.

ب- الخلاقة: تبنى من ركام الصور المحسوسة المتراكمة في الذاكرة عالما جديدا في نسق مثالي إمكانات لا تنضب . فإذا عنيت بالعالم الحقيقي تزيد في إغنائه ، فهي إذا ملكة ابتكارية شائعة في الفنانين ، والعلماء وكبار القواد والسياسيين والمتصفين بالأذهان النيرة والأدبية ، وهى منطلق الاكتشافات والاختراعات منذ أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر" [٥].

والمخيلة والتخييل ؛ هي المصطلحات التي تعنى الخيال وتتصل به عند فلاسفة النقاد في نقدنا التراثي كابن سينا وحازم القرطاحنى ، فابن سينا يعرف التخييل بقول: والمخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس ، فتنبسط عن أمور وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار ، وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسيا غير فكرى سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق"[٦] .

ونجد فكرة الانبساط والانقباض عند المتلقي نتيجة لتأثير التخييل فيه عند حازم القرطاجنى أيضا وهو يتحدث عن مستويات المعاني[٧] ، وإن كان حازم لا يتوقف عن حدود الصورة بفعل الخيال ، وإنما يتجاوز ذلك أيضا إلى فعل الخيال

في اللفظ والمعنى والأسلوب ، والنظم والوزن ، بل ويشير إلى بعض الجوانب السابقة التي وجدناها في التعريف الحديث السابق في "المعجم الأدبي" ، وذلك عندما يقول :" والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه ، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها ، أو تصور شئ آخر بها انفعالا من غير رويَّة إلى جهة الانبساط أو الانقباض".

ومن هذا ندرك أثر التخييل في النفس ، وما يترتب عليه من انفعال نفسي تجاه الموضوع أو القضية التى تتضمنها المقولات الشعرية ، قبولا أو رفضا ، حسب ما يبتغى الشاعر ، وما يريد بخياله أو تخييله ، وبناء على ذلك يمكن أن ندرك مدى تأثير الخيال في أدب الطفل في نفس الطفل أيضا ، إذا روعي فيه ما سوف نشير إليه بالتفصيل فيما يلي ، برغم أن نقادنا التراثيين لم يكونوا يتحدثون عن أدب الطفل ، فلم يكن مثل هذا الأدب معروفا لهم بالدرجة نفسها والمستوى نفسه الذي نتعامل به معه اليوم ، لأن كثيراً مما كانوا يعتبرونه للكبار في هذا المجال كان يقدم للأطفال أيضا ، وهنا يجب أن لا ننسى نصيحة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للآباء بأن يُرَوُّوا أبناءهم الشعر.

لذلك يمكن أن نقول إن الخيال قوة فكرية يحتاجها الكبير والصغير كي يتجاوز الواقع ، ويواجه مشكلاته ، ويسبر غور حياته ، ومن ثم فهو يسهم عند الأسوياء من البشر في رسم طريق واضح ، قد يهدى إلى نظرية علمية عند العلماء ، أو إلى عمل أدبي عند الأدباء ، أو تصور لسلوك حياتي سوى عند غيرهم ، كل حسب المجال الذي يتصل به ، وهكذا تتعدد وتتنوع ألوان الخيال ؛ فهناك الخيال الأدبي الذي لا يستغنى عنه الشاعر أو كاتب القصة ، أو المسرحية أو المقالة ، وغيرها من الأشكال الأدبية ، وهو يعالج همومه واهتماماته ، على مستوى الفرد والمجتمع والأمة ، وهناك الخيال العلمي ، الذي نجده عند العلماء وهم يتصورون علاقة الإنسان بالحياة ومتغيراتها ، ويبحثون سبل تقدمها . بل إن هذه الرؤى قد تكون عند البشر بصفة عامة ، وهم يوظفون الخيال فيتعدد بتعددهم [٨] ، ويتنوع بتنوع حرفهم وتفكيرهم في الحياة ، وطبيعة البيئة التي يتصلون بها ، من ثم فهناك الخيال السياسي ، والخيال الطبي ، والخيال العسكري ، والزراعي ، وهكذا .

وأتصور أن هذين الضربين الأولين من الخيال : وهما العلمي والأدبي قد يتلازمان عند العلماء والأدباء ، حسب المكونات الثقافية والمعرفية لكل منهما ، من ثم فقد وجدنا عند

بعض الأدباء مايسمى بأدب "الخيال العلمي" ، الذي ازدهر في القرن العشرين ، وانبعث منه أنواع جديدة أخرى مثل أدب الفنتازيا العلمية ، وأدب الظواهر الخفية [٩] .

كما نجد عند العلماء شيئا من ذلك الخيال الأدبي ، لا يتجلى في رؤاهم الفكرية ، وتجاربهم العلمية فحسب ، بل يتضح في صياغاتهم لنظرياتهم العلمية ، وتصوراتهم الفكرية والفلسفية.

والأديب والعالم السياسي وغيرهم ممن يوظفون الخيال في الإنتاج والإبداع والابتكار ، لا تتجلى فاعليتهم إلا عندما يتمثل المتلقي تجربتهم ويتصل بما يبدعونه أو ينتجونه أو يبتكرونه ، وغير ذلك مما يؤكد شمولية التجربة ، وشمولية الخيال الموظف [١٠] . هكذا يصبح الخيال على اختلاف مستوياته وأنواعه يضم المرسل والمستقبل ، سواء كان هذا المستقبل كبيرا أم صغيرا ، كل حسب مستوى الخيال ، و يعنينا في هذا المجال هو الخيال الأدبي.

ثانيا: توظيف الخيال الأدبي:-

لقد تباينت مواقف الناس تجاه الخيال ، فوجدنا اليونانيين خاصة أفلاطون وأرسطو يحذرون من الخيال بصفة عامة لاعتقادهم بأنه مضلل خادع ، ولذلك حذروا من سيطرته على

العقل [١١] ، وقد تابعهم الكلاسيكيون في ذلك ،من ثم كانوا يعلون من قيمة العقل والمنطق ، وربما كان ذلك من أهم الأسباب في سيادة نظرية المحاكاة في عنصر النهضة حتى يحدوا من أثر الخيال ، لكن ذلك لم يستمر مع متغيرات الحياة ، ورغبة الإنسان في التحرر من القيود ، وتجاوز ما يعوق تفكيره.

من ثم فقد كان أهم تحول بعد ذلك يتمثل فيما رآه الفيلسوف الألماني كانط في القرن الثامن عشر ، من أن الخيال هو أجل قوى الإنسان ، التي لا يستطيع أحد أن يستغنى عنها[١٢].

ثم تضاعف الإحساس بأهمية الخيال في منتصف القرن الثامن عشر عندما جاءت الحركة الرومانسية ممثلة في روادها مثل: بليك ووردزورث و كوليردج و شيلي و كيتس ، فأعلت من الخيال والإبداع وقرنت بينهما ، خاصة بعد أن طالب روادها بالتحرر من التقاليد والقواعد التي أرسلتها الكلاسيكية ، كما أكد هؤلاء الرواد على التلقائية والغنائية ، وأعلوا من قيمة الذات ، ودافعوا عن أهمية الخيال والأصالة [١٣] ، وهم في الوقت نفسه كانوا يرون أن الخيال أكبر نشاط حيوي للعقل[١٤] .

وربما كان ووردزورث و كوليردج من أهم رواد الحركة الرومانسية الذين تحدثوا عن أهمية الخيال ووظيفته في العملية الإبداعية، وفرقا بين الوهم والخيال ، كما نجد وورد زورث يتحدث عن أثر الخيال في الصورة الفنية فبين أن الخيال : " هو القدرة على اختراع ما يلبس اللوحات المسرحية لباسا فيه تكتسي أشخاص المسرحية نسيجا جديدا ، ويسلكون مسالكهم الطريفة ، أو هو تلك القدرة الكيماوية التي بها تمتزج – معا– العناصر المتباعدة في أصلها والمختلفة كل الاختلاف ، كي تصير مجموعا متآلفا منسجما" (١٥) ، وفكرة الجمع والمزج والتأليف بين العناصر المتابينة سنجدها عند كثير من الرومانسيين وهم يتحدثون عن وظيفة الخيال ، بل وجدناها عند عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ) قبل هؤلاء جميعا وهو يتحدث في فكرة تشكيل الصورة (التمثيل) وتأثيرها في المتلقي ، خاصة وهو "يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ربقة ، ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة" (١٦) .

وها هو ذا كوليردج الذى تأثر بكانط ووردزورث ، يتحدث عن أنواع الخيال ويفرق بينها ، فبين أن "الخيال نوعان: أولهما الخيال الأولى: وهو القوة الحيوية والعامل الأول في كل إدراك إنسانى ، وهو علمي في وظيفته...

أما النوع الثاني: فهو الخيال الثانوي ، وهو صدى للخيال السابق ، ويصطحب دائما بالوعى الإرادي ، وهو يتفق مع الأول في نوع عمله ، ولكنه يختلف عنه في درجته وطريقة عمله، لأنه يحلل الأشياء ، أو يؤلف بينها ، أو يوحدها ، أو يتسامى بها ليخرج من كل ذلك بخلق جديد ، ومجاله الفن ، وهذا النوع من الخيال يدعوه كانط الخيال الجمالى " [١٧] .

وهكذا يلتقى وورد زورث وكوليردج في بيان وظيفة الخيال وأنه القدرة التي يشكل بها المبدع الصورة عندما يعمد إلى الأشياء في الواقع العينى ليفتت تماسكها ، فلا يبقى منها إلا على صفاتها أو بعض صفاتها ، ليضعها في نظام جديد ، فتكتسب علاقات جديدة ، وصفات جديدة، بعد أن حطم وأذاب علاقاتها وصفاتها فتلاشى منها ما تلاشى ، وبقى منه ما بقى ، ولكن في نظام آخر ولإبداع آخر [١٨] ، ونجد هذا واضحا في كثير من الصور في أدب الكبار وفي أدب الأطفال مع اختلاف مستوى التشكيل ، والمرحلة السنية التي يلائمها بالنسبة للأطفال كما سيتضح.

وثمة ناقد آخر أيد كوليردج فيما ذهب إليه من حديث عن الخيال ونوعيه ووظيفته وتعدد مجالاته، وهو ريتشاردز في

كتابه "مبادئ النقد الأدبي" ، حيث حدد ستة معان للخيال تتضمن كثيرا من الصور التى نجدها في الأدب [١٩] منها :-

١- أنه قد "يأتي بمعنى توليد صور واضحة ، وهو يعتمد على الصور المرئية، وهو أكثرها شيوعا وأقلها أهمية" ، وذلك قد يلتقي مع الخيال الأولى عند كوليردج.

٢- "الخيال الذي نجده في اللغة المجازية سواء كانت استعارة أم تشبيها" ، وهذا الخيال نجده كثيرا عند الشعراء في أدب الكبار وأدب الأطفال.

٣- وقد يقصد بالخيال "تصوير الحالات الذهنية ، للغير عن طريق المشاركة الوجدانية ، ويظهر هذا في تصوير حالات الشخصيات العاطفية كما يوجد في المسرحيات " وذلك أيضا نجده في أدب الكبار وأدب الصغار على اختلاف في مستوى التصوير والتأثير حسب المرحلة السنية.

٤- وقد يأتي الخيال بمعنى "الإبداع والاختراع والجمع بين عناصر مختلفة قد لا توجد بينها رابطة" ، كما في بعض قصص ومسرحيات أدب الخيال العلمي للكبار والصغار ، خاصة عندما يتم تشكيل الحدث في بيئات غريبة كأعماق البحار أو باطن الأرض أو أجواز الفضاء.

٥- كما يتفق ريتشاردز مع كوليردج في الخيال الثانوي عندما يرى الخيال "القوة التركيبية السحرية التى تعمل على خلق التوازن بين الصفات المتضادة أو المتقاربة".

وإذا كان ووردزورث وكوليردج وريتشاردز وقبلهم ابن سينا وحازم القرطاجنى يتحدثون عن الخيال في أدب الكبار ، فيلاحظ – فيما سبق – كما أشرت تضمين معاني الخيال ووظيفته لكثير من الصور التي نجدها في أدب الأطفال أيضا ، طبعا على اختلاف في مستوى تشكيل الصورة وتنوع عناصرها ، ودرجة تأثيرها ، وإسهامها في بناء العمل الأدبي ، بما يتناسب مع المرحلة السنية للأطفال كما سيتضح.

ونحن وإن كنا لا نحبذ الإسراف في الخيال وصوره ، حتى لا يؤدى ذلك إلى تزييفه ، لأنه بذلك يفسد خيال الطفل ، فلا شك أيضا أن الأدب يمكن أن يكون جافا إذا كرس الواقع فقط ، فيعوق الطفل عن الاستمتاع والإفادة ، من ثم فالطفل بحاجة إلى الكاتب المبدع الذي يحسن التوازن بين الجانبين[٢٠].

ثالثا: أنواع الخيال في أدب الأطفال :-

ويمكن أن نحصر الخيال في أدب الأطفال من حيث وظيفته ومعناه ، بناء على ما سبق في ثلاثة أنواع هي:

أ- الصور المجازية.

ب-الخرافة والأساطير والجن والسحر.

ج- أدب الخيال العلمي . *

وقد تجتمع هذه الأنواع في العمل الأدبي للأطفال وقد يغلب نوع منها على غيره.

وسأتناول بالدراسة هنا النوع الأول فقط ، لأنه أساسي في تشكيل الأدب ، كما أرجو أن يتاح لي أو لغيري دراسة النوعين الآخرين قريبا ، وفي مجال آخر إن شاء الله.

رابعا: الصور المجازية:

يقصد بالصور المجازية – التي يصنعها الخيال – بصفة عامة أو بصورة مبدئية بسيطة ؛ أنها تعنى استخدام الأديب للكلمة في معنى غير المعنى الذي يوجد لها في المعجم ، حيث ينقلها الأديب في عمله الأدبي من المجال المعجمي إلى مجال آخر ، لتعطى دلالة أوسع ، لأنها في هذا الاستخدام الجديد ، يمكن أن تتضمن بعض ملامح المعنى الحقيقي المعجمي ،

• سبق مناقشة هذا اللون من الخيال في كتابي : النص الأدبي للأطفال طبعة دار البشير بعمان من صفحة ١٣٨: صفحة ١٤٤ ، و طبعة العبيكان بالرياض من صفحة ١٧٩: صفحة ١٨٧ .

بالإضافة إلى الدلالة الجديدة في العمل الأدبي ، مما يجعل دلالتها ثرية، كما يمكن أن تحقق قيمة جمالية للتعبير ، بالربط بين طرفي الصورة المتشكلة وهذان الطرفان هما:

المعنى الحقيقي والمعنى المجازى ، أو المشبه والمشبه به ، أو المستعار منه والمستعار له ، أو المعنى القريب والمعنى البعيد في الكناية ، وهذا الربط أو هذه العلاقة بين هذين الطرفين تقوم على أسس نفسية منها: تصوير المعنوي في صورة حسية ، فتدركه النفس وتتأثر به ، أو تنقل الصورة المتلقي من الخفي إلى الجلي عن طريق هذا الربط ، فتتجلى الصورة في نفسه ، أو ينتقل المتلقي مما هو قريب منه مألوف له إلى ما هو بعيد عنه ، فتتضح الصورة أكثر.

وهكذا يقيم الأديب هذا الربط وهذه العلاقات ببراعته ، خاصة عندما تتباعد هذه الأطراف في الواقع ، ولكن هذا الجمع بينها يحكمه الفكر والقياس والاستنباط [٢١] وهكذا ، ونحن لا نطالب الصغير ، بإدراك بلاغة الصور المجازية على أسسها البلاغية والفنية والنفسية ، وكيفية تشكيلها ، فهذا بالنسبة للكبار المتخصصين ، لكننا فقط نريد أن يتمثل خياله ما فيها من جمال حتى يتذوقه ، أو يؤثر فيه ، بناء على ما بين أطراف الصورة من علاقات.

فمتى يستطيع الطفل أن يدرك بخياله هذه العلاقات بين الأشياء ، استطاع أن يستنتج الفكرة ، ويصل إلى المعنى المراد خلال مثل هذه العلاقات ، ويتذوق ما يتحقق من صور جميلة في النصوص الأدبية الخاصة به تذوقا يمتعه ، وينمى فيه في الوقت نفسه حاسته الجمالية ، كما يسهم هذا التذوق في تربية ذوقه ، وكل هذا بفضل إدراك خياله وعقله لهذه العلاقات.

إن تفكير الطفل وذكاءه يتطوران باستمرار ، خاصة منذ السابعة حتى ينتقل من مرحلة الذكاء الحدسي أي اللامنطقي الذي ساد فترة طفولته المبكرة من (٣ ــ ٧سنوات) ، إذ يجد صعوبة في التمييز بين الخيال والحقيقة لينتقل إلى مرحلة الذكاء المحسوس (من ٨ ــ ١٢ سنة) ، ويعتبر ذلك تحولا مهما في حياة الطفل الذهنية والاجتماعية وهو ما يعنينا ، فيتجلى لديه بروز العمليات الذهنية كالتفهم والمناقشة والحوار مع رفاقه ، وقد يعمد إلى إعطاء الأدلة والبراهين التي تؤكد وجهة نظره ، لأنه وهو ينتقل في هذه المرحلة من الذكاء الحدسي (اللامنطقى) إلى الذكاء المحسوس القائم على العلاقات المتبادلة أو العكسية ، يستطيع أن يدرك العلاقات القائمة بين شيئين أو أكثر ، وهو ما يتصل بمقدرته على الاتصال بالصور المجازية ، وإدراك

دلالاتها ، واستنباط معانيها ، وبداية تذوقه لها من الثامنة من عمره [٢٢] .

وهو في هذه السن قد يتدعم لديه التمييز بين الخيال والحقيقة ، كما يستطيع أن يتبين أوجه الشبه والفروق بين الأشياء البسيطة ، كما يتوسع في استخدام اللغة الرمزية [٢٣] ، وهذه الصور أيضا يمكن أن ترمز إلى معان ودلالات ، ولكن هذه الصور في الوقت نفسه يجب ألا تقوم على تعقيد العلاقات ، وتكثيفها ، وإنما يجب أن تكون هناك بساطة في الصور ، بناء على بساطة أطرافها وقرب الاتصال بينها ، وبعدها عن التعقيد حتى لا تتجاوز المرحلة السنية الملائمة لها ، فيكفي فيها الربط بين شيئين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، حتى يستطيع الطفل أن يستوعبها ويتأملها ، ويتفاعل معها ، ويدرك شيئا مما ترمز إليه ، كما سيتضح في النصوص التي سنتناولها بالتحليل.

خامسا: تحليل لنموذج قصصي يكشف عن أثر الخيال فيه وتأثيره في الطفل:

١- من كتب الأطفال ، مجموعة قصصية بعنوان "أسرار وأخبار .. البخلاء" [٢٤] ، في القصة الأولى منها وهى بعنوان (البخل وباء) ، حاول الكاتب فيها توظيف قصة

أصحاب الجنة (البستان) الواردة في سورة "القلم" وتتمثل في شخصية الأب الخير الذي يحتفظ لأسرته بجزء من ثمار بستانه ، ليكفيها مئونة العام ، ويتصدق بما تبقى من ثمار هذا البستان ، إلى أن توفاه الله، وورثه أبناؤه الثلاثة ، ويعقد الكاتب "تقابلا" أساسيا في بناء القصة بين الأب وأبنائه ، فبدلاً من أن يعيدوا سيرة أبيهم ونظامه في ثمار البستان طمعوا فيها كلها ، وأرادوا أن يحرموا الفقراء والمساكين نصيبهم الذي تعود والدهم إعطاءهم إياه، ولذلك فقد قرروا جني الثمار كلها مبكرين في الفجر قبل أن يدركهم هؤلاء الفقراء والمساكين ، حتى إذا وصلوا لا يجدون شيئا قد تبقى لهم من ثمار البستان ، وبرغم أن أوسط هؤلاء الإخوة قد نصحهم بألا يفعلوا ذلك حتى يجروا سنة أبيهم ، ويرضوا ربهم ، لكنهم رفضوا طمعا في نصيب كبير لهم.

وفي الصباح الباكر عندما ، ذهبوا إلى بستانهم لم يجدوا شيئا ، فقد أصابته ريح اقتلعت أشجاره ، ونار أحرقت كل ما فيه ، وهكذا نزل بهم عقاب الله ، خاصة وأنهم لم يستجيبوا لنصيحة أخيهم ، وثمة علاقة "تماثل" بين الأبناء

والمحتاجين ، فقد حرموا جميعا من ثمار البستان ، المالكون والفقراء ، وإن كان طمع الأبناء هو السبب .

٢- هذه القصة تقوم على علاقتين : علاقة الأبناء بأبيهم وعلاقة هؤلاء الأبناء بالمحتاجين ، وهكذا تجاوزت هذه القصة العلاقة الواحدة ، من ثم فهي لا تناسب إلا أطفال مرحلة الطفولة المتوسطة من (٧ : ١٠) ، وكذلك مرحلة الطفولة المتأخرة الذين يدرك خيالهم وتفكيرهم تعدد العلاقات ، وتحديد المرحلة السنية شرط مهم للتعامل مع هذه القصة ، بل مع هذه المجموعة كلها ، وهو ما افتقدته ، بل إننا نؤكد على وجوب أن يحدد الكاتب لأي عمل للأطفال ، المرحلة السنية التي تلائمه ، على غلاف الكتاب حتى يسهل على الآباء والأمهات والأطفال اختياره.

٣- وثمة عناصر قصصية شكلت هذه القصة الأولى من هذه المجموعة القصصية (أسرار وأخبار البخلاء):-

١) المكان: فقد حددت القصة قرية ضروان بالقرب من صنعاء عاصمة اليمن .

٢) الزمان: قبل الإسلام : وهذان العنصران مهمان في تحديد مجال القصة وزمانها، للإشارة إلى أنها واقعية أو الإيهام بذلك ، فمثل هذا التحديد يقربها من

الطفل المتلقي ، ويساعده على التفاعل معها ، واستيعاب الأهداف المنوطة بها التي تشير إليها في النهاية.

٣) الشخصيات: أ-الأب بملامحه المعنوية: حب الخير والبر والإحسان والذكاء.

ب- الأبناء الثلاثة وهم على عكس أبيهم تماما : البخل والطمع ومنع الخير.

ج- المحتاجون والمساكين الذين تعودوا أن ينالوا صدقة الأب .

ويلاحظ أنه لا توجد أي ملامح مادية لهؤلاء الأشخاص جميعا يمكن أن تسهم في أقناع الأطفال بهم ، ولذلك فالمعول عليه في التأثير هنا كثيرا هو الحدث ، والصور المجازية، ولغة القصة بصفة عامة.

٤- وهذا "الحدث" يتألف من بداية ووسط ونهاية ، البداية في مخالفة الأبناء لما كان يصنعه أبوهم من فعل الخير ، ورفضهم لنصيحة أوسطهم ، "والوسط" يتمثل في عزمهم على التبكير في جني محصول الثمار قبل وصول المحتاجين ، ونومهم العميق ، أما "النهاية" فتتمثل في الريح التي اقتلعت الأشجار ، والنار التي أتت على كل ما

في البستان فاحرقته ، واكتشاف الإخوة ما نزل بالبستان من خراب ودمار ثم ندمهم . ويلاحظ أن هذا التسلسل المنطقي في توالى أجزاء الحدث مما يسهم في التأثير في الأطفال المتلقين ، ويقنعهم بأهداف القصة.

٥- العقدة والحل والنهاية: وتتمثل "العقدة" في قمة تأزم الحدث الذي اتضح في تأكيد الأخوين لثالثهم أنهم مصرون على منع الفقراء حقهم ، وتهامسهم وهم متوجهون للبستان مبكرين بعد نوم عميق ، أما "الحل" : فيتمثل في وقوع الكارثة ، وأما النهاية : فهي ندمهم ولومهم أنفسهم وطلب المغفرة من الله.

والتتابع المنطقي فيما سبق ودقته ، بالإضافة إلى وحدة البناء الفنية يمكن أن تشكل عنصر"التشويق" الذي تجلى في توظيف القصة القرآنية ، والجمع بين أجزائها في هذه الوحدة الفنية (وهى وظيفة الخيال الثانوي الذي أشرنا إليه عند كل من (كوليردج وريتشاردز سابقا صفحة ٨:٥).

٦- اللغة:

أ- تتميز لغة القصة بمناسبتها لمعجم أطفال هذه المرحلة المتوسطة ، فليس فيها من المفردات ما يخرج عن هذا المستوى إلا تعبير (أهل الكتاب

وكلمة وباء) وهو ما يمكن شرحه لهم بسهولة ، (فأهل الكتاب وهو المسيحيون واليود ، والوباء: المرض الخطير الذي ينتشر ويدمر الحياة).

ب-كما تنوعت الجمل بين الطول والقصر ، وكان الطول في أول هذه القصة لعرض بيئتها ، وبيان صفات الأب ، ولكننا وجدنا الجمل تقصر في منتصفها ونهايتها ، لرصد بخل الأبناء وطمعهم وما أصاب البستان من خراب ، ولتتابع هذا الأثر السيئ على عقول ونفوس الأبناء الثلاثة البخلاء ، فيستشعرون الندم ، ويطلبون المغفرة من الله ، وهكذا ناسب طول الجمل عرض الخير ، كما ناسب قصر الجمل عرض العقاب ، ولتتجلى المفارقة بين المسلكين ، والعملين ؛ فعل الخير وفعل الشر ، مما يقنع بالأول وينفر من الثاني.

ج- كما وضَحَتْ "كان" متعددة لبيان أن هذه القصة في الزمن الماضي ، خاصة في الجزء الأول منها الخاص بالأب ، بل إن هناك كثيرا من الأفعال المضارعة التي اكتسبت دلالة الماضي لمصاحبتها الأفعال الماضية الأخرى في سياقها ، مما يكسب

القصة صفة " الحدوتة" التي يمكن أن تجذب الأطفال، بإسهامها في تشويقهم .

و- ولقد كانت النتيجة التي انتهت بها القصة مشبعة لاهتمامات الأطفال المتلقين من حيث مكافأة المحسن - وهو الأب الذي اتصف بالصلاح - وعقاب المسيء الطماع البخيل وهم الأبناء .

د- المستوى الخيالي التصويري :-

وثمة صور مجازية في هذه القصة تشكلها الكناية، فيتآزر ويتشافع ويتصل المعنيان : الحقيقي المعجمي القريب ، والكنائى المجازي البعيد ، وما بينهما من علاقة واتصال - يسهم عندما يدركه خيال الطفل - في تجسيد حال الأبناء الثلاثة ، وما نزل بهم من عقاب الله لهم نتيجة منعهم الفقير حقه .

وتأمل أول صورة وهى تشكل العنوان : " البخل وباء " وهى قائمة على التشبيه ومحاولة الكاتب أن يوجد علاقة بين طرفين هما البخل والباء ، على أساس ما يترتب على كل منهما من خراب وتدمير، فكما أن الوباء هو انتشار المرض الخطير وقضاؤه على الحياة ، وتدميره لها بشرا وحيوانا ونباتا ، كذلك البخل ، والطمع وحرمان الفقير وذي الحاجة من الصدقة أو البر.

يؤدى إلى الخراب و التدمير وفقدان الحياة لهؤلاء المساكين والمحتاجين.

ونلاحظ أن هذه علاقة بسيطة بين طرفي الصورة عمادها التشبيه، وهذا الربط بين طرفي الصورة يمكن لطفل المرحلة المتوسطة من الطفولة وما بعدها أن يستوعبها ، ويتأملها (بناء على بحوث جان بياجيه انظر ص١٠، ١١ فيما سبق) وذلك بعد أن يوضح له الكبار معنى كلمة "وباء".

وهكذا منذ بداية القصة يستشعر الطفل الخطر الذي سينتشر ، فإذا تتابعت الصور الأخرى في القصة وتآزرت في بيان وتصوير البخل والطمع كوباء يهدد المحتاجين والمساكين والفقراء يتضاعف إحساس الطفل بخطورته وتقبيحه ، وشدة نفوره منه ، ومن ثم إقباله على الخير والكرم ومعاونة المحتاجين .

- الصورة الثانية: "ثم ذهب الثلاثة لينامو ا ، وراحوا في نوم عميق" ، وهي كناية تفيد استغراقهم في النوم ، وهذا هو المعنى الحقيقي المعجمي القريب ، لكنها في الوقت نفسه تكشف عن شدة غفلتهم عن فعل الخير ، وما يمكن أن يحل بهم من عقاب نتيجة غضب الله عليهم، وهذا هو المعنى المجازى ، ويستطيع الطفل الربط بين هذين المعنيين في القصة ؛ فالأبناء فيها

بغفلتهم عن فعل الخير ن وتناسيهم له ، برغم ما يترتب على ذلك من ضرر المحتاجين المساكين وعقاب الله ، تماما كالمستغرق في النوم لا يدري شيئا عما حوله ، برغم خطورته.

وهكذا يستنتج الطفل سوء ما ارتكبه الأبناء الثلاثة في القصة بعزمهم على حرمان الفقراء حقهم في الصدقة ، وشدة ما نزل ببستانهم من دمار وخراب . وبذلك تسهم هذه الصورة الخيالية في تحذير الطفل وتنفيره من منع الفقراء والمحتاجين حقهم في الصدقة ،وهو هدف مهم من أهداف هذه القصة ، إذ يسهم في إيجاد الطفل السوي وحسن تربيته، وذلك من أهم أهداف الدين الإسلامي الذي تعمل هذه القصة على تثبيت قيمه وإرسائها في وجدان الطفل وعقله.

- من هذه الصورة أيضا: "أرسل الله - تعالى - ريحا شديدة ونارا على البستان فاقتلعت الريح الأشجار من جذورها ، وأحرقت النار البستان بما فيه ، حتى صار أسود متفحما ، كأن لم يكن بستانا منذ قليل".

"فاقتلاع الأشجار من جذورها ، وتفحم البستان" يمكن أن يكون معنى حقيقيا معجميا ، لكنه في الوقت نفسه يتضمن معنى مجازيا وهي كناية أيضا عن شدة "اقتلاع الأشجار، وشدة إحراقها" ، مما يدل على شدة عقاب الله الذي نزل بأصحاب هذا

البستان ، هذان المعنيان يمكن للطفل الربط بينهما عند تامله لتلك الصورة في سياق القصة واستيعابه لها ، إذ بإمكانه في مرحلة الطفولة المتوسطة وما بعدها أن يدرك ذلك بخياله وتفكيره كما أوضحنا سابقا . فإذا ما تمثل من خلال هذين المعنيين والعلاقة بينهما ، والربط بينهما شدة هذا العقاب ، فقد نجحت هذه الصورة متآزرة مع سابقتها ، وغيره مما يوجد في القصة ، من تحقيق الأهداف الإسلامية المنوطة بها في تبغيض البخل للطفل وتنفيره من الطمع ، ومن ثم إقباله على الخير ومساعدة المساكين والمحتاجين.

هـ- وشدة تأثير هذه الصورة وأمثالها في نفس الطفل ، وتفاعله معها ، يرقى بلغته العربية ، ويوسع من حصيلته اللغوية ، ويزيد من قدرته على التعبير عما يعن له في الحياة.

و- وتتجاوز شدة التأثير بالصور الهدف اللغوي المعرفي لترقى بتذوق الطفل الجمالي عندما يشعر بأهمية هذه الصور في الكشف عن الفكرة وشدة تأثيرها في وجدانه ، فتتهذب مشاعره ، ويرق إحساسه بالجمال ، وغير ذلك مما ينعكس على ممارساته.

سادسا: وهذا تحليل لنص شعري:

نحاول الكشف فيه عن "الخيال" خلال الصور المجازية فيه ، وبيان مدى إسهامها في تحقيق الأهداف المنوطة بهذا النص الشعري للأطفال

كتابي نهر امعلومات

فهذه منظومة من ديوان شعر للأطفال بعنوان "أشجار الشارع أخواتي" لأحمد فضل شبلول ، إصدار رابطة الأدب الإسلامي العالمية(٢٥) .

المرحلة السنية التي تلائمها:

هذه المنظومة تتألف من ثلاثة وستين سطرا شعريا قصيرا ، وتحاول أن تحدث الطفل عن الكتاب ، وفوائده ، وتشير إلى ما يمكن أن يتضمنه هذا الكتاب من هداية وعلوم ومعارف، وأثرها في تنمية معلوماته وخبراته، وتهيئته لمواجهة الحياة بالعلم والمعرفة ، ومن ثم تبتغى أن تحببه في كتاب الله خاصة ، وكل الكتب النافعة عامة ، وما تتضمنه ، والمحافظة عليها، وصقل مهاراته في القراءة والكتابة ، وجذبه تجاه دروسه وتربية ذوقه وتنميته.

لكنها بهذا الطول وذلك التنوع المعرفي يمكن أن تكون مناسبة لمرحلة الطفولة المتأخرة(من ١٠ : ١٢ سنة) فقد يستطيع أطفال هذه المرحلة استيعابها ، لما لهم من مقدرة أكثر على التركيز ، وإدراك العلاقات المتعددة ما بين الكتاب وما يتضمنه من معارف متنوعة ، وأثره في الحياة ، وأنه خير جليس ، خاصة ما فيه من آيات قرآنية ، تحفظ الإنسان من الزلل والخطأ.

ويمكن أن يكون هذا النص مناسبا لمرحلة الطفولة المتوسطة من (٧ : ٩ سنوات) ، بشرط أن تقسم هذه المنظومة ثلاثة أقسام ، بحيث يستقل أطفال هذه المرحلة المتوسطة بأحد هذه الأقسام ، أو تقدم لهم على ثلاث فترات زمنية متفاوتة ، فدرجة تركيزهم أقل ، ومقدرتهم العقلية يمكنها استيعاب علاقات أقل ، وكأني بالشاعر قد أراد ذلك حيث جعل جملة "كتابي نهر المعلومات"، عبارة محورية، يمكن أن يبدأ بها وينتهي كل قسم من أقسامها الثلاثة.

الألفاظ والمستوى التركيبي: وسواء كانت لهؤلاء أو لأولئك فهي تتميز بجمل قصيره حتى لتبلغ الجملة كلمتين أو ثلاث كلمات، ومعظمها ليس غريبا على معجم الطفل أو بيئته في هذه المرحلة السنية ، [الكتاب – النهر – القلب ، الشمس – السماء – الصفحات – الأحرف ....إلخ].

ويلاحظ أن هذه الكلمات السابقة يغلب عليها الماديات ، مما ييسر على الطفل استيعابها والتمثل الدلالي لها ، بل إن هذا قد يعين على استيعاب مفردات يغلب عليها التجريد عندما تقترن المفردات ذات الدلالات المادية بغيرها ذات الدلالات المعنوية مثل : [.. عن المستقبل الباهر – نتبع الأحرف لكي نعرف – أرى الأكوان في كتبي..].

بل إن معظم هذه الجمل بسيطة في تركيبها ، بعيدة عن التعقيد والتداخل ، ذات أطراف متقاربة مبتدأ وخبر ، أو فعل وفاعل ، بل إن ما فيها من تقديم وتأخير في كثير من الأحيان قد يكون غاية في اليسر والسهولة ، مثل [به سور – به آيات – به أرقام..] وذلك بجانب ما فيها من حذف سهل الفهم والتقدير ، بجانب تحقيقه للإيجاز المفيد.

ويقوم "التكرير" بدور مهم في استيعاب الطفل وتمثل دلالات هذه المنظومة ، سواء اتخذ هذا التكرير الجملة المحورية أساسا له كما في (كتابي نهر معلومات) التي تتكرر في بداية النص ونهايته ، وفي بداية كل فقرة ونهايتها ، أو كان التكرير لحرفي الجر (الباء أو عن) في بداية الأسطر المتتابعة ، عندما تنبث هذه الظاهرة "التكرير" خلال المنظومة ، مما يثرى إيقاعها ويسهل حفظها ، بل إن الأسطر العشرة الأولى تبدأ بها المنظومة وتختتم.

كما يتكرر حرف العطف (الواو) الرابطة بين عديد من الجمل في هذه المنظومة، وبطريقة خاصة ، بين سطورها محققا الربط والتواصل الفكري ليستمر التمثل الدلالي بالنسبة للطفل ، كما يسهم هذا التكرير أيضا في ثراء الإيقاع بأدق صوره وهو التكرير النغمي.

المستوى التصويري:

لا شك أن القيمة الجمالية لأدب الأطفال التي تتجلى خلال الصور المجازية – التي يشكلها خيال الكاتب – ذات أهمية خاصة في تربية الأذواق ، وصقل القدرات ، وتنمية الحس الجمالي الفني لدى الأطفال ، ولن يتحقق ذلك إلا باستثمار كثير من النواحي الجمالية في نصوص أدب الأطفال ، وهنا سوف نجد عدة صور مجازية شكلها خيال الكاتب لعل في مقدمتها : (كتابي نهر معلومات).

ثم:

- تَسْبح الكلمات
- تَجْرى الأحرف
- تَتْبعها
- أرى الأكوانَ في كتبي
- كتابُ الله يحْفظنا من الزلل
- نُودِعُه هذا القلب
- إذا غابت شموسُ العلم
- يغيبُ القوم

- هيا نحضن الكتبا
- وهيا نفهم العلما
- ونجعله لنا أماً

سوف نجد أن معظم هذه الصور المجازية ذات طرفين أحدهما معنوي والآخر مادي أو العكس ، وذلك لتقريب الفكرة ، والتأثير بها في الطفل المتلقي عن طريق الجمع بين المادي و المعنوي ، بين المحسوس من ذلك والمجرد،بين الأكثر إيلافا والأقل ، ومن المعلوم إلى المجهول ،.مما يستثير خيال الطفل (خاصة في مرحلة الطفولة المتوسطة) ، حيث يستطيع هذا الطفل إدراك هذه العلاقات الفردية بين طرفين وإن تعددت صورها ، مما يرقى بخياله / ومشاعره ، وينمى حاسته الفنية الجمالية بالانتقال بين هذين المستويين (الحقيقي والمجازى) ، فيستثير خياله ، ويصقل مشاعره ويهذبها، ويمكن أن يستمتع الطفل بهذا الجمال البياني السهل.

المستوى الإيقاعي:

هذه المنظومة ثرية الإيقاع ، سواء على مستوى التكرير ، تكرير الجمل أو الألفاظ أو الحروف كما أشرت في المستوى التركيبي ، وبما حققه لها الوزن الشعري من تناغم وتوازن لاعتماده وحدة التفعيلة لا البحر أساسا له ، وبالمراوحة بين

إطلاق القافية وتقييدها ، وفي كليهما ثراء نغمى ، بالإضافة إلى ما يتضمنه النص من تقسيمات متوازنة.

لكن ثمة سلبيات يمكن أن تهدد ملائمة هذا النص للأطفال، منها الطول الذي قد لا يتناسب مع مراحل الطفولة ودرجة تركيز الطفل فيها ، ثم عدم ملاءمة تضمين قول المتنبي "وخير جليس في الزمان كتاب" ، حيث لا تنسجم إيقاعيا مع تفعيلات النص ، مما قد يعوق عملية التلقي والحفظ ، كما أن كثرة المجردات من معاني وألفاظ يحسب على النص لا له.

ولكن هذه المنظومة تحقق كثيرا من الأهداف المنوطة بها ، كجذب انتباه الطفل لأهمية الكتب بصفة عامة كمصدر للعلم والمعرفة ، والقرآن الكريم بصفة خاصة ، ووجوب المحافظة على هذه الكتب واقتنائها ، كما تثير فيهم حب القراءة والمعرفة ، كما تزودهم بكثير من المعارف الحياتية ، وأنواع السلوك السوي ، كما تعلى من إحساسهم بالجمال وتذوقه عن طريق ما فيها من إيقاع ونغم .

ولعله قد وضح مما سبق أهمية الخيال في تشكيل الصور المجازية ، وإسهامها في تحقيق كثير من الأهداف المنوطة بأدب الطفل ، مما يسهم في بناء أبناء اليوم رجال والغد.

الهوامش

١- انظر مختار الصحاح . محمد أبو بكر الرازي ط دار الجبل بيروت سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ص ١٢٦ ، ١٩٦.

٢- انظر أرنولد جزل (وآخرون): الطفل من الخامسة إلى العاشرة ترجمة أ. عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة د.أحمد عبد السلام الكردانى – الألف كتاب الثانى ١٦٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٩٩٥ ص ٢٥٩ ، وقد ضرب جان بياجيه مثلا بالطفل في هذه المرحلة عندما يحدثه أهله عن بابا نويل وهداياه في "الكريسماس" فيصدق ذلك ، ثم يكتشف عندما يتجاوز هذه المرحلة ما يخالف ذلك ، أنظر

Elizabeth B. Hurlock Developmental psychology a life – span approach fifth edition Tata Mc graw – Hill edition 1988

٣- د. محمد غنيمى هلال النقد الأدبي الحديث دار النهضة مصر بالفجالة سنة ١٩٧٩م ص٣٨٨،

٤- د. جبور عبد النور المعجم الأدبي دار العلم للملايين بيروت يناير سنة ١٩٨٤ط ٢ص١٠٦ .

٥- السابق نفسه ص٢٤٤ .

٦- ابن سينا فن الشعر ترجمة د. عبد الرحمن بدوى دار الثقافة بيروت ط ٢سنة ١٩٧٣ ص ١٦١ .

٧- حازم القرطاجنى منهاج البلغاء وسراج الأدباء ط ٣ سنة ١٩٨٦م دار المغرب الإسلامي بيروت ص٨٩ وكذلك انظر ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٩٠ ، ٩١

٨- انظر د. نجيب الكيلانى أدب الأطفال في ضوء الإسلام مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ سنة ١٤١١هـ ص ١٢٢ ١٩٩٠م.

٩- انظر محمود قاسم أدب الخيال العلمي الدار العلمية للكتاب القاهرة سنة ١٩٩٣ ص ٨ .

١٠-انظر د. نبيل راغب عناصر البلاغة الأدبية مكتبة السرة الأعمال الفكرية مهرجان القراءة للجميع هيئة الكتاب القاهرة وزارة الثقافة سنة ٢٠٠٣ص ١٠٠ ، ص١٠١ .

١١-انظر د. محمد غنيمى هلال النقد الأدبي الحديث ص ٣١ ، ص٣٨٨ وكذلك انظر أحمد أمين النقد الأدبي

دار الكتاب العربي ببيروت ط ٤ سنة ١٩٦٧م ص٣٢٩.

١٢-انظر د. محمد غنيمى هلال النقد الأدبي الحديث ص ٣٨٨.

١٣-انظر د. فاطمة سعيد أحمد حمدان :مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ص ١٣.

١٤-انظر عناصر البلاغة الأدبية ص٨٦.

١٥-انظر د. محمد غنيمى هلال النقد الأدبي الحديث ص ٣٨٩ .

١٦-انظر عبد القاهر الجرجانى أسرار البلاغة تحقيق الشيخ محمود شاكر ط١ سنة ١٤١٢هـ/١٩٩١ م ص ١٢٩، ص١٤٨.

١٧-انظر د. محمد غنيمى هلال النقد الأدبي الحديث ص ٣٩٠ .

١٨-انظر د. محمد مصطفي بدوى كوليردج ص ٦٠ ، ١٥٦، وكذلك انظر د. عز الدين إسماعيل التفسير النفسي للأدب ط٢دار المعارف مصر ص ٦٧ ،

وكذاك الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي د.سعد أبو الرضا ط ١ سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٨١ .

١٩-أ.أ. ريتشاردز مبادئ النقد الأدبي ترجمة د. مصطفي بدوى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ص ٣ ، وكذلك انظر مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة ص ١٨ ، ص٣ ، وكذلك انظر مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة ص١٨ ، ص١٩ وكذلك انظر البلاغة الأدبية ص ١٠٤ .

٢٠-انظر احمد نجيب: المضمون في كتب الأطفال رقم (٢) في دراسات في أدب الأطفال دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٧٩ ص ٨ .

٢١-انظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ص ٨٦، ولعبد القاهر الجرجاني أيضا كلام طيب في أسرار تشكيل الصورة وتأثيرها في المتلقي انظر أسرار البلاغة من ص ١٢١ وما بعدها حتى ص ١٤٨ .

٢٢-انظر غسان يعقوب : تطور الطفل عند جان بياجيه دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٨٢م ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

٢٣-انظر جزل الطفل من الخامسة إلى العاشرة ج٢ ص٢٦١ .

٢٤-أسرار وأخبار البخلاء : دار الفاروق للطبع والتوزيع قسم النشر للأطفال القاهرة ط ١ سنة ٢٠٠٤م.

٢٥-أحمد فضل شبلول "أشجار الشارع أخواتى" نشر رابطة الأدب الإسلامي العالمية الرياض مكتب البلاد العربية سلسلة أدب الأطفال (٥) طبع دار البشير للنشر والتوزيع سنة ١٩٩٤ م ص ٣٠.